مضامين الشعر التعليمي للأطفال عند جمال الطاهري

The contents of educational poetry for children by Jamal Al-Taheri

د. يوسف عمر

rafeithaer1@gmail.com

جامعة العربي التبسي- تبسة (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2019/01/06 تاريخ القبول:2020/02/01 تاريخ النشر: 2020/05/02

الملخص

تعالج هذه المقالة مضامين شعر الأطفال التّعليمي والتّربوي عند جمال الطّاهري، التي سعى فيها لغرس ما رآه صالحا من قيم أصيلة، وعادات متأصّلة في نفوس أطفال العرب عامّة، وأطفال الجزائر خاصّة، وهي رسالته التّربوية التي آمن بها وتكبّد مشاقها وكلّه أمل في صنع جيل معرّب، ومثقّف، ومتعلّم من أجل تحقيق التّقدّم والازدهار لهذا الوطن الجميل.

الكلمات المفتاحية: المضامين؛ الشعر التعليمي؛ التربية والتعليم؛ اللغة العربية؛ شعر الأطفال

Abstract: This article deals with the contents of the educational system and educational children's hair when Jamal Tahiri, which it sought to inculcate what he saw valid from authentic values, habits and deeply rooted in the hearts of the children of Arabs in general, and of children in Algeria, the educational message of the 158,656 and could inadvertently lend hoping in decision-making, the parser generation, intellectuals and educated in order to achieve progress and prosperity of this beautiful country.

Keywords: The contents; poetry education; education; the Arabic language; the children poetry

تمهيد

الشّعر التعليمي فنّ قديم عرفه اليونان، وعرفه العرب منذ العصر العبّاسي وهو لا يلتقي مع الشّعر الفنّي الذي يغلب عليه عنصرا الخيال والعاطفة إلا في صفة النّظم وعلى ذلك فهو الشّعر الذي "تنظم فيه فنون العلم والمعارف كالنّحو والفقه والتّاريخ..."[1] بهدف تعليم الناس شؤون دنياهم وأخراهم، وتزويدهم بالحقائق والمعلومات المتعلقة بحياة الفرد والجماعة.

ويعالج الشّعر التّعليمي في عمومه "الأخلاق والعقيدة والعبادة، ويتناول الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، ويتناول التاريخ والسير؛ فيقرر ويبيّن الأنساب والأصول والفروع، وتسلسل الحوادث وترتيبها، ويبحث العلل والأسباب، ويعرض للعلوم والفنون والصناعات، فيقرر الحقائق المتعلقة بشأنها، ويضع لها القواعد ويستنبط لها القوانين"[2]. حتى صار وسيلة في أيدي بعض الناظمين ليعين الناشئة على حفظ العلوم وبخاصة في موضوعات المتون التّعليمية، في شكل لقمة سائغة سهلة الحفظ، وسريعة الاستدعاء؛ لأنّ النّظم أعلق بالذّهن من النّثر؛ وذلك بعضٌ من فوائده، أمّا مضارّه فمرجعها إلى الْتباسه بالشّعر، والإساءة إلى مفهومه كفنّ جميل يحمل الأفكار والمشاعر بأسلوب ممتع، يتمازج فيه الخيال مع الموسيقى.

وإذا كان هذا هو أمر الشعر التعليمي عامّة، فإنّ أمره في أدب الأطفال "ليس المقصود به تقرير حقائق، أو حكم في أبيات، وإلّا أصبح مجرّد نظم لا حياة فيه، وإنّما المقصود به تصوير هذه الحقائق وتحويلها إلى لوحات نابضة بالحياة"[3]

لتكوين صورة خاصة في ذاكرة الطّفل، وفي أكثر الأحيان تتداخل المضامين التّعليمية مع المضامين التربوية والمضامين الاجتماعية وذلك لارتكاز "كلّ منها على توجيه الطفل وحفزه بشكل تربوي، إلى السّلوك السّليم وإلى التّحلّي بالخلق الكريم، من خلال ربطه بقضية ما ثمّ توجيهه إلى أخذ الإيجابيات منها"[4] لإيصاله إلى الهدف، والوقوف على حقائق الأشياء.

وقد اهتمّ شعراء الطّفولة في الجزائر بعالم الطّفل المدرسي، وبكلّ ما يتّصل به وبتعليمه كيف يعيش مع الآخرين، وجعل تفكيره أصيلا نزّاعا إلى المثل العليا من خير وحقّ، وعدل وحرية، وتنشئة شخصيته على الأخلاق الإسلامية التي لا يختلف جوهرها بين الأسرة والمدرسة، وتربيته التربية الاجتماعية العقلانية وتدريبه على حلّ المشكلات لتحمّل المسؤوليات، على اعتبار أن المدرسة هي الحضن الثاني بعد حضن الأسرة؛ فعالجوا في موضوع الشعر التعليمي للأطفال –وإن كنّا نزعم أنّ كل شعر الأطفال هو شعر تعليمي – مضامين متنوعة تدعم الجوانب التّربوية، وتوضّح رسالة المدرسة.

وجمال الطّاهري[5] لم يشذ عن ذلك، حيث تناول مجموعة من المضامين تعدّدت بين طلب العلم، التّعلّم، التعليم، والقراءة، واللغة العربية، وغيرها في مجموعة من القصائد والأناشيد الموجهة للأطفال من خلال ديوانيه: تفح الياسمين، والزهور، وهو ما سنحاول معالجته من خلال هذه المقالة باستعمال المنهج التحليلي الوصفي.

1- مضامين التربية والتعليم:

بادئ ذي بدء، في موضوعات التعليم والتّربية، يتناول الشّاعر انطلاقا من رؤيته الإسلامية مضمون طلب العلم؛ حيث استرفد من القرآن الكريم ولجأ إلى التّضمين في إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ **اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾[6] لينطلق إلى إرشاد وتوجيه الطفل المتلقّي لطلب العلم في مطلع قصيدة (اطلبوا العلم)[7]:

مبدأُ الإسلام: اقـرأ جَعلَ التّعليمَ مبدأْ
فَاطْلُبِ العلْمَ سِلاحًا سَيّدُ الأَقْوَامِ يَبْـدأْ

ثمّ يوجّه الأطفال إلى أنّ قوّة الوطن تكمن في امتلاك أبنائه سلاح العلم الذي تكتظّ ساحة الحياة بمعطياته الحديثة وتطبيقاتها في كل مجال، فينقل الحياة من محدودية الوسائل والإمكانات إلي آفاق باهرة ومتجددة من الرغد والرفاهية والتحكم في البيئة والغذاء والصناعة والزراعة والتنقل؛ فالعلم بمضامينه ونتائجه وتفاعلاته هو الذي يجعل الأوطان قوية؛ لذلك يفتخر الشّاعر على ألسنة أطفال مرحلة الخيال الحرّ، بالقلم كرمز لطلب العلم، ودافع للاكتشافات والاختراعات التي ترحل بنا إلى مصاف الأمم المتقدّمة يضيف الشاعر[8]:

بلـدِي يحْيَا قَـويًّا وَيَـدُ العلمِ قويّهْ
وبــهِ يَحْـيَا أَبِيًّـــا رَايـةُ العِلْـمِ أبيَّـهْ
فخْرُنَا اليومَ اليَـراعْ فاكْتِشـافٌ واخْتِراعْ
وبِهِ يحْلو الصّـــراعْ إنّ تحدَّتْـنَا البَرِيَّهْ
بهِ نرْتَادُ الحضَـــارهْ بهِ نعلُو عن حقَـارهْ
بِهِ نحتَلُّ الصَّـــدَارهْ في صُفُوفِ البَشَرِيهْ

ويتناول ذات المضامين لأطفال مرحلة الواقع المحدود بالبيئة، بأسلوب غنائي خفيف، مجريا الخطاب على ألسنتهم دون إرهاق أو تعجيز، داعيا إلى إلزامية التّعليم لتحقيق المنافع والمكاسب لكلّ البشرية، وذلك في أنشودة (تعلّم)[9]:

تَعَلّـمْ، تَعَلَّـمْ وخُـذْ بالعُلُومْ
بعلْـمٍ تَقَـدّمْ تَنَلْ مَـا تَرُومْ
تَعَلّمْ صَـــلَاحْ تَعَلَّـمْ فَـلَاحْ
وخُضْ بِالْكِفَاحْ طريقَ النَّجَاحْ
تَعَلَّـمْ لخيْـرْ جَميعِ البشَـرْ
وَنَلْ كلَّ فَخْرْ بِـمَا يُبْتَكَـــرْ

وإذا كان الشّاعر قد خاطب الأطفال بأن يتعلّموا في المقطوعة السّابقة؛ فإنّه يصوّرهم وكأنّهم قد استجابوا لدعوته في مقطوعة (التّعليم الأَوْلَى) ليطلبوا من الذين يقفون على تربيتهم أن يعلّموهم ما يرغبون في تعلّمه، وصحبة المتعلّم للمربّي شرط في النّظرية التربوية الاسلامية؛ لأنّه "يجد فيه القدوة التي ينقل عنها السّلوك المرغوب به، وليساعده على الفهم، وليجد البيئة التي تمكّنه من تطبيق ممارسة ما ترنو إليه أهداف التّعليم"[10] فهم يرغبون في حفظ القرآن الكريم، وهدْي النّبي صلى الله عليه وسلم، والارتواء من سيرته العطرة، وتعلّم مبادئ الدّين الإسلامي الحنيف[11]:

عَلِّمُـونَا من هُدَى اللهِ العظِيـمْ
أَسْلِكُونا في هُدَى الهادِي الكريـمْ
نَوِّرُوا قُلُـوبَـنَا بِمِشْعَـلِ القـرآنْ
وازْرَعُوا دُرُوبَنَا منْ سِيرةِ العدْنَـانْ
نِظَامُـنَا إسلامُـنَا
مَنَـــارُنَا قُـــرْآنُـنَا

وتناول الطّاهري موضوع المعلّم من مضمون رسالته المقدّسة في تعليم النّاشئة، فهو عنده السّراج الّذي ينير الدروب للسالكين، في ظلمة الجهل في تناص إشاري مع المقولة المشهورة:(من علّمني حرفا صرت له عبدا) وكأنّه يشير إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم، المعلّم الأول للبشرية، والهدية التي منّها الله على المؤمنين في قوله تعالى:﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[12] انطلاقا من رؤيته الخاصّة على لسان طفل مرحلة المغامرة والبطولة، الذي كان تلميذا له؛ لأنّه مربيًا، يقول في مطلع قصيدة (المعلّم)[13]:

اِعلمْ منْ علّمني حرفًا أمكثَ في العُمْرِ لهُ عبْدَا
أهْدانِـي النّورَ بِمِشْكَاةٍ أَهْدتْ في الظُّلْمةِ لي رُشْدَا
قدْ عَانَى السُّهْدَ لِيَهْدِينِي لِيُحَـوِّلَ أيَّامِـي سَعْـــدَا
اِعلمْ منْ علّمني حَرْفًا قدْ حَـرَّر منْ عَقْلِي الْعَبْدَا

والشّاعر يبعد الطّفل عن تلك النّظرة المادية للمعلّم، ويضعه في منظار القداسة والرّفعة لهذا التّاج الذي يعلو كلّ الرّؤوس، فهو رمز الهيبة والوقار، الذي يهدي عمره للصّغار ليروي عقولهم من منابع المعرفة، ويبني أفكارهم ويحميها من زيغ الانحراف بآيات القرآن الكريم، ويهتمّ جاهدا بصحّتهم، وبتوافقهم الشّخصي والاجتماعي، وبآمالهم وأهدافهم وطموحاتهم، ولا أَجَلَّ من أن يحيّيه الأطفال ويدعون له بطول العمر يضيف شاعرنا قائلا [14]:

مَنْ عاش العُمْرَ لِيَهْدِيَنِي مِنْ نبعِ الحِكْمَةِ يَسْقِينِي
بالنّور الخَالِصِ يَشْفِينِي وبِآيَةِ رَبِّي يُحْيِينِي
أَدْعُو الرَّحْمَنَ لهُ أَبَدًا يَحْدُوهُ يَقِينًا بِيَقِينِ
ويُطِيلُ العُمْرَ لَهُ سَنَدَا تَأْيِيدَ يَمِينٍ بِيَمِينِ
حُيِّيتُمْ يَا رُسُلَ النُّورِ مُذْ هَبُّوا ضِدَّ الدَّيْجُورِ

ثمّ راح الشّاعر يعدّد المهام التي يقوم بها المعلّمون من أجل أجيال عالمة ومثقّفة ويبرز أدوارهم في المجتمع الإسلامي؛ بل وحتّى في المجتمع العالمي وفي مفكّرة أوقاتهم يتساوى النّهار مع الليل، فَهُم في اللّيل يتحاورون مع الكتب وما تحويه من معارف وفي النّهار يخاطبون بها عقول الأطفال في أمانة لا تُبارى ولا تُجارى؛ في معركة رابحة يصنعون فيها أمجاد الأمم[15]:

غَنُّوا للصُّبْح وكَمْ سَهِرُوا لِقِتَالِ اللّيْلِ المسْعُورِ
بسَيُوفِ عُلُومٍ ويَقِينِ مَصْقُولٍ مِثلَ البَلُّورِ
وأَتَوْا بالشَّمْسِ بِرَوْنَقِهَا لغدٍ مشْدُوهٍ مبْهُورِ
هَبُّوا للثَّوْرَةِ بالعلمِ لَا ثَوْرَةَ إِلَّا بِعُلُومِ
أَهْدُوا للعالَمِ أنْجُمَهُ في أروعِ عِقْدٍ منْظَومِ
خَطُّوا للشَّعْبِ مَسِيرتُهُ في نَهْجِ الحقِّ المرْسُومِ
مَا عمّ الخيْرُ بِمجتمعٍ إِلَّا منْ فضلِ التّعليمِ

وانطلاقا من مقولة: طفل اليوم رجل الغد، يتوّجه صاحبنا جمال الطّاهري إلى تحيّة الأولاد الذكور وهم في حركة دائبة نحو مدارسهم لطلب العلم على لسان المجتمع فيقول في مقطوعة من قصيدة (حيّوا البنين)[16]:

حيُّوا براعمَ الذُّكُورْ لما غَدُوْا سَاعَ البُكُورْ
أَعْيُنُهمْ نَارٌ و نورْ في جَرْأَةِ اللّيثِ الهصُورْ
تَعلّموا أيَا صغارْ بالعلْمِ تَغْدُونَ الكِبَارْ
أنتمْ حُماةُ هذِي الدّارْ فَلْتَجْلِبُوا لها الفخَارْ
حيّوا تلميذنا اللّبيبْ فقد يُرى غدًا طبيبْ
أو عالما عِلْمًا خصيبْ أو صانِعًا صُنْعًا عَجِيبْ

ولا ينس جمال الطّاهري تعليم الفتاة، الذي كان يُنظر إليه نظرة إهمال لتخلّف البلاد في سنوات مجحفة سابقة، لأسباب عديدة لا يتّسع المقام لمناقشتها فعالج هذا المضمون من كون أنّه إذا كان تعليم الفتاة يحقّق لها أغراضا شخصية؛

فإنّه إلى جانب ذلك "يحقّق للمجتمع المسلم أغراضا قد تكون أهم وأكبر في الجملة مما يتحقّق للفتيات المتعلّمات فالرّقي الاجتماعي، والتّقدّم الحضاري، وإحياء التّراث الإسلامي، وغيرها من المقاصد الحسنة لا يمكن أن تتحقّق للمجتمع المسلم إلّا من وراء تعليم الفتاة، وتربيته إيّاها"[17] وركّز على المعرفة الدّينية كمطلب أساس حثّ عليه الإسلام، في شكل خطاب من الفتيات نحو المجتمع الذي كان يرفض تعليمهنّ، يقول الشاعر في قصيدة (تعليم الفتاة)[18]:

علّمـــونَا، علّمـــونَا نَدرِكُ الدَّرْبَ الصّحيحْ
وامْلَأُوا الأفْهَـــامَ نورًا نَصْنَعِ الشّيءَ المليحْ
نحنُ نصـــفُ المجتمعْ قُـوّةٌ فـي الوطـــنِ
لَوْ رَعَـانَا واسْتَمـــعْ زالَ نصـــفُ المِحَـنِ
لا تَلُومُـــوا إنْ جَهِلْنَا واجبـــاتِ المسلمـاتْ
منْ أضَعْتـــمْ لهُ حقًّا كيفَ يدري الواجبَاتْ
علِّمُونَا ســوف نرعَــى واجـــباتِ الوطـــنِ
فيهِ ندرِي وقتَ نسْـعَى سَيِّـئًا مـــنْ حَســـنِ
نَدرِكُ الصُّنْـــعَ المفيدْ والخـلالَ الفاضِـــلاتْ
نحرسُ النّـــــشءَ المجيدْ والصّبَايَا المسلِمـــاتْ

ثمّ يخلص في الأخير إلى نتيجة مفادها أنّ فتاة اليوم هي أمّ الغد، ويصوّر معاناتها مع الجهل الذي استعار له صورة اللّيل الطّويل، ووصفه بالضّلال كما أشار إلى الصورة التي ستكون عليها الأجيال القادمة إذا ما رضعت جهلَ الأمّ الجاهلة، وبذلك يصل إلى حلّ خلّاق، وهو وجوب تعليم الفتاة، يضيف على لسان البنات[19]:

وابعثـــوا فينَا جمـــالًا نَدرِكُ الشّيء الجميلْ
وامْنَعُـــوا عنَّا ضَـلالًا رَاعَـنَا اللّيـلُ الطَّويـلْ
نحن في صفّ البنـاتْ وغـدًا فِـي الأمّهاتْ
ويْلَ جيـــلٍ أرْضعتْهُ أمّهـــاتٌ جاهـــلاتْ

ويتضح في قصيدة (طلب العلم) التّالية، أن الرّجل خبر الموضوع السّابق جيّدا وقدّمه بأسلوب سهل بتمكّن واقتدار، ليضيف إلى شعره أنموذجا يتميّز بتبسيط المعلومات للأطفال، وكأنّ قصائده "يجمع بينها خيط شعوري واحد وكأنّها قصيدة واحدة طويلة تجمع بين أبياتها شتّى المشاعر، جنبا إلى جنب في تأليف فريد"[20] فإنّه وإن ثار في ما سبق على رموز السلطة بوصفها حواجز وقيود ضدّ تعليم الفتاة وصوّرها مجنيًا عليها من المجتمع، فهو يتحدّى هذه الرّموز ويطلب من الفتاة أن تتعلّم، وتُقبل على التّعلّم فيقول مخاطبا البنت الجزائرية[21]:

تَعلَّمِي خيـرَ العُلُـومْ لتمتَطِـي متـنَ النُّجُـومْ
فاللّهُ خيـرَنَا يـــــرومْ وهـــو بِنَا دومًـــا رؤُومْ
لا يقبَلُ الجهـلَ الظّلومْ

تعلّمِي عِلْمًا سبـــقْ كيْ تُدركِي ظُلمًا وحـقْ
لتُرْشِدي منْ قدْ مـرقْ وتنصُري منْ قد صــدقْ
وتعبُـدِي اللهَ الأحــقّْ

وبمناسبة عيد العلم، الذي ارتبطت تسميته برائد النّهضة الجزائرية، الشيخ عبد الحميد بن باديس؛ الذي كرس حياته للعلم والمعرفة، وتعليم أبناء الجزائر مبادئ العلوم الإسلامية، وتوجيههم إلى الطّريق الصحيح، يستغلّ الشاعر المناسبة ليقدّم مقطّعة صغيرة شرّفها أن تحمل (وصية باديس) يخاطب فيها ابنته الصّغيرة، ومن خلالها بنات الجزائر في شكل مقولات صغيرة، استمدّ معانيها من تراث بن باديس، وأخضعها لنظرته التّربوية وبسّطها للبنات الصّغيرات، وساقها في إيقاع سهل محبّب لبنات مرحلة الخيال المنطلق يقول فيها[22]:

باديسُ قالْ، باديسُ قـالْ هُبِّي ابنـــتِي كوِني المثالْ
كــوِني مِثــالًا رائـــعًا في كــلِّ آنٍ ومجَـــالْ
باديـسُ قــالْ، تعلَّمِـــي العلمُ يعطيك الجمــالْ
فالعلمُ فــرضُ للجميـعْ وليس حكرًا على الرّجالْ

وبمناسبة عيد العلم، الذي ارتبطت تسميته برائد النّهضة الجزائرية، الشيخ عبد الحميد بن باديس؛ الذي كرس حياته للعلم والمعرفة، وتعليم أبناء الجزائر مبادئ العلوم الإسلامية، وتوجيههم إلى الطّريق الصحيح، يستغلّ الشاعر المناسبة ليقدّم مقطّعة صغيرة شرّفها أن تحمل (وصية باديس) يخاطب فيها ابنته الصّغيرة، ومن خلالها بنات الجزائر في شكل مقولات صغيرة، استمدّ معانيها من تراث بن باديس، وأخضعها لنظرته التّربوية وبسّطها للبنات الصّغيرات، وساقها في إيقاع سهل محبّب لبنات مرحلة الخيال المنطلق يقول فيها[23]:

باديسُ قالْ، باديسُ قـالْ هُبِّي ابنتِي كوِني المثـــــالْ
كــوِني مِثــالًا رائـــعًا في كــلِّ آنٍ ومجَـــــالْ
باديسُ قـــالْ، تعلَّمِـــي العلمُ يعطيـــك الجمالْ
فالعلمُ فــرضُ للجميـعْ وليس حكرًا على الرّجـالْ

ويلحّ الطّاهري على التّعلّم في شتّى الميادين؛ لأنّ العصر عصر علوم ويوضّح أن السّمو بالطّموح، يجعل من النّجوم موطئا للأقدام، بالعلم والإيمان وقهر الصّعاب ويشير تصريحا إلى أنّ أوّل آية نزلت من القرآن الكريم دعت للعلم ببيان (اقـرأ) والتي تكرّرت مرتين في سورة العلق:﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ.خَلَقَ الإنْسَانَ من عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بالقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[24] مع اقترانها بالعلم حثًّا وأمرًا، يقول الشاعر في المقطع الأول من (عصر العلوم) مخاطبا مرحلة الطّفولة الثالثة لجعل الأطفال يحسّون بعوالم البيئة من حولهم، يخاطب واحدا منهم[25]:

تعلَّمْ، تعلَّمْ، تعلَّمْ، تعلَّمْ فعصرُكَ هذا لَعَصْـــرُ العلومْ
فمنْ نَالَ علمًا سَمَا في البَرَايَا ومن نَالَ علمًا سَـمَا للنُّجومْ
فَأَوَّلُ آيــاتِ ربِّــكَ اقـرأْ لأنَّ التَّعلُّـمَ أمــرٌ عظيـمْ

فخُذْ بالعلومِ سبيلًا قويمًا تعشْ في البسيطةِ عيشَ النّعيمْ

ثمّ يوجه الأطفال إلى قيمة الكتاب بوصفه غذاء العقل، فعلى الرغم من أنّ التّقدّم الهائل الذي يسير بسرعة مذهلة في هذا العصر، جعل من بعض الوسائل رفيقة للإنسان، ومسايرة له؛ لصغر حجمها وقدرتها الفائقة على تخزين المعلومات بل وقد تحوّل بعضها إلى معلّم ومرشد، في عملية التّعلّم، يبقى الكتاب الرّافد الأول للعلم والمعرفة، والحامل الأول لهما، فهو للعقل بمثابة الطّعام للجسم، وزاد القلب، والعقل بالفكر هو المحرّك، والجسم بالعقل هو الوسيلة في هذه المعاني يقول الطّاهري في المقطع الثاني[26]:

وعشْ بالكتابِ كمَا بالطَّعامِ فعيشٌ بهذَا، وعيشٌ بـذاكْ
وزَوّدْ فُؤَادك دوْمًا غِـــذاءً إذَا رُمْتَ تحقيقَ كلِّ مُنَاكْ
فربُّكَ أَعطَاكَ جسمًا وعقْـلَا فسخّـرهُمَا لِتَـرَى مُبْتَغـاكْ
ففكِّرْ بعقـلٍ كبيرٍ سليـمْ ونفّذْ بجسمِكَ أمـرَ دُنَـاكْ

ويسعى الشاعر إلى تحريك أفكار الأطفال ضمن المنظومة القيمية للعلم ويصوّر معركة قائمة بين العلم والجهل، والفائز فيها من اكتسح علمه مساحات جهله، بالمثابرة والاكتساب من منهل العلوم على اختلافها، أجْلَ تقديم خدمة للبشرية جمعاء، وبذلك ينفع وينتفع، ويجلي من خلال هذه المعاني قيمة العلم كسلاح روحي نافع، ويدعو الأطفال لامتلاكه والتجهّز به؛ لنيل العزّة والرّفعة، وقد أصاب الرّجل حين ابتعد بالأطفال عن الوجه الضّار للعلم؛ حتى لا يشوّش نازعة التلقّي عندهم؛ التي تحبّ كل جميل ولا تعرف فلسفة الكره ضمن مراحل الطّفولة[27]:

وإنْ شِئْتَ فَوْزًا بهذَا الصِّـراعْ فَفُـزْ بابْتكارٍ، وفُزْ باختـراعْ
تجهّزْ بكـلِّ ضروبِ العلـومِ أعزُّ السِّلاحِ سلاحُ اليـراعْ
وسَخّرْهُ من أجلِ خيرِ الأنـامْ فَلَا شَكَّ تلقَى خيْرَ انتفاعْ
بهِ القَومُ سادُوا بِهَذا الوُجُـودْ لهمْ عزّةٌ في الورى وانتفـاعْ

ويكرّر المعاني السّابقة في قصيدة أخرى سمّاها (أغنية الجيل الجديد) وتحوّل فيها من الإرشاد والتّوجيه إلى تغنّي الأطفال بالعلم، والتعهّد بالبراعة فيه لبناء الدّولة الجزائرية على شاكلة النّشيد الوطني وفي تضمين لطيف منه، يقول على ألسنة أطفال المرحلة المتوسّطة في استجابة لتوجيهه وإرشاده لهم[28]:

قسمًا في العلمِ نبـرعْ نبـرعْ سوفَ نبـرعْ
وسنبني ألـفِ مصنعْ نصنعْ ألفَ مصـنعْ
وسنبنـي منْ جديـدْ دولـةً أرقَـى وأرفـعْ
إنّهُ عهْـــدٌ مؤكَّـدْ فاشْهـدُوا
مبدأُ الإسلامِ: اقـرأْ نقـرأْ سوفَ نقرأْ
جعلَ التّعليمَ مبـدأْ مبـدأْ سوفَ نبـدأْ
وسنبني منْ جديـدْ فـوقَ مَا الغربـيُّ أنشـأْ

ويخطّ جمال الطّاهري لأجيال العرب طريق النّجاح الحقيقي، حيث العلم والأدب والمعرفة، ويوضّح أبعاد هذه القضية في جمال أداءٍ وحلاوةِ إيقاعٍ، فكان نشيد (سلاح الجيل الجديد) "ذو تأثير عميق على مختلف الأجيال التي نشأت تحبّ العلم...وهذا هو السّبق، وهذه هي الرّيادة في أدب الأطفال المنظوم"[29] لإقامة دعائم هذا الفن الذي يحبّه الأطفال، ولإيصال رسالته في أبسط المعاني[30]:

بالـعلـــمِ والأدبْ سلّحوا جيلَ العربْ
فهو خيرُ المكتسبْ للصّباحِ المرتَقَـــبْ
باسمِ العلـومِ نفخرُ ويُجْتَنَى التَّحضّـــرُ
بها الـورَى تحـــرَّرُوا بفضْلِـهَا تطَـــوَّرُوا
بها نَجْنِي أعْلَـى المرَامْ ونعتَلِي أسمى المقَـامْ

ودائما يسعى الطّاهري في شعره للأطفال أن لا تخلو قصيدة أو أنشودة منه من لمسة دينية؛ لترسيخ الأخلاق الحميدة، يضيف في ذات القصيدة[31]:

وفخرُنَا زَيْنُ الخُلُـقْ فهـــوَ الجمـالُ والألقْ
بهِ يكونُ المنطلَـــقْ لمنْ نحوَ العلَا استبَـــقْ
بهِ الشّعوبُ تسعدْ وقدْ نَأَى عنها القلـقْ

ويخلص في الأخير إلى حكمة جميلة يوجّهها لأطفال العرب؛ مفاد مضمونها أنّ من قعد به النّسب لا يرفعه إلّا العلم والأدب، يقول[32]:

بالعلـــومِ والأدبْ سلّحوا جيلَ العـــربْ
فالعُلَا لا يُكتَسَـبْ إنْ قَعَدْنَا بالنَّسَـــبْ

كما اهتمّ شاعرنا بالقصّة كوسيط ناقل للتّاريخ، وبما تتضمّنه من دروس وعبر وما تصوّره من قصص الشّجاعة والبطولة والتّضحية، وكوسيط ناقل للسير وأحداثها المثيرة، وصوّر شكلها ومضمونها في قالب شعري تعليمي رقيق قصير الكلمات، خفيف الوزن، يمسّ ذائقة مرحلة الطّفولة الأولى، بأسلوب طلبي عذب (هيّا نقرأ القصّة) وكأنّه يشاركهم هذا الفعل؛ لينفعلوا معه قراءة وأداءً في دعوة ضمنية للمطالعة[33]:

يَـا مَا أحلَى هـذِي القـصّهْ
فَلنَقْـــرَأْهَـــا فِي ذِي اَلحِـصَّهْ
فِيهَـــا أَدْرِي الَماضي الغابرْ
تُهْـدِي عُمرِي الْيَـــوْمَ الحَاضِـرْ
وبـها ذكـــرَى مـنْ أجـــدادِي
تحمـل بشـرَى صوتِي الحـــادِي
هـيَّا نقـــرأْ هـذِي القصّـــهْ

نُحْيِـــي نَعْنَـمْ أحـلَى فرصـهْ
فلْنعرِفْـهـــا فقـرَهْ، فقـــرَهْ
ولْنَذْكـرهَـــا عِبْـرَهْ، عِبْـــرَهْ
ولْنعْلمـــهَـــا درْسًا، درْسًـــا
إنْ نفْهمْـهَـا تُعْـلِ النَّفْسَـــا

2- مضامين اللغة العربية:

وفي ظلّ التّداخل اللّغوي بين العربية الفصحى والعامّية وبينها واللّغة الفرنسية في شتّى المناشط الرسمية وغير الرّسمية، يتناول الشّاعر موضوع اللّغة العربية زهرة التّاريخ العابقة، وشهادة الأجيال النّاطقة، ويفخر بتسميتها (لغتي) في إرشاد شائق بينه وبين تلميذه (خالد) وفي تعالق تاريخي باستدعائه لشخصية سيف الله المسلول (خالد بن الوليد) الذي عمل على نشر الإسلام واللّغة العربية في فتوحاته الإسلامية، فيطلب منه في أوّل مقطع منها أن يقرأ الجملة العربية بصوت عالٍ وفق مخارج الحروف[34]:

اقرأْ ذِي الجملةَ يا خالدْ اقرأها بالصّوتِ العالِي
انطقْها بالحـرفِ الماجدْ انطقْهَا بالضَّادِ الغالِي
اقرأْ ذِي الجملةَ يا خالدْ اقرأها بالصّوتِ العالِي
انطقْهَا بالحرف الخالـــدْ حرفِ القرآنِ المتعالِي

ثمّ إنّ "الذي يدقّق النّظر في العربية المعاصرة يجد الكثير من ألفاظها فارق أمّه وظلّت تلك الأمّ الفصحى حيّة مقصورة على الاستخدام الدّيني المرتبط بالقرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطهّرة"[35] والاستعمال الأدبي في أشكاله النّثرية والشعرية؛ لذلك انبرى الشاعر للدّفاع عنها، وسعى لنجدتها من كلّ ضرّ؛ لأنّها لغة القرآن والذّكر والفكر وكانت عذبة التّغاريد، رضي بها الأسلاف في المفاخر؛ حتّى سادت وقاربت ووحّدت ولن تكون رِباعها مجفُوّة في عصر التّقنيات والشّبكات، ولن تعجز عن تنسيق أسماء المخترعات على حدّ قول حافظ إبراهيم حين قال على لسان اللغة العربية[36]:

وسعتُ كتابَ اللّه لفـظًا وغايـــة وما ضقْتُ عن آيٍ به وعظـــات
فكيفَ أضيق اليومَ عن وصفِ آلةٍ وتنسيـق أسمـــاءٍ لمختراعـــــات؟
أنَا البحرُ في أحشائه الدّرُّ كامـنٌ فهل سألوا الغـوَّاصَ عنْ صَدَفَاتي
فيا ويحكم أَبْلَى وتبْلـى محاســـني ومنكم –وإن عزَّ الدّواءُ– أُساتي
فلا تكلـــوني للزّمـــــانِ، فإنّـــنِي أخافُ عليكـم انْ تحيـنَ وفَـاتي

يضيف الرّجل في المقطع الثّاني[37]:

اقرأْ ذِي الجملَـةَ في فخْـرٍ وبصـــوْتٍ يَزْخـرُ بالكِبْـــرِ
اقـرأْهَا اليـومَ منمَّقـــةً بنُصُوصِ النّثْرِ أو الشِّعْـــرِ
لغـــةُ القـــرْآنِ تُجمِّلُـهَا لغـــةٌ للحُكْـمِ و للذّكْـــرِ

وكمَا قدْ سادتْ منْ قبـلٍ ستحُوزُ السّبْقَ بِذَا العصـر

ثمّ يوجّه الشّاعر بؤرة الضوء على فنّ عريق قائم بذاته، هو فن الخط العربي الوجه الآخر للغة العربية "منذ كانت في رحم النّقوش الصّخرية، مرورا بأطوارها التّاريخية، فتية يدوّن بها القرآن الكريم، ثمّ ناضجة تزيّنها جهود اللّغويين العرب الذين ما فتئوا يطوّرونها بأدوات لغوية وفنّية أحكمت صنعها من داخل الكتابة نفسها، فنجحوا في التّطوير والبناء وكانت جهودهم منهجا لنا مازلنا نسير عليه وبعد أن اكتملت أدواتها الأدائية، نراها ترفل بعد ذلك في بذخ جمالي شامخ مع إبداعات الفنّانين المسلمين من أرباب الخط العربي"[38] ليضع الشّاعر أسرار هذا الخط وخفاياه أمام الأطفال مبيّنا التموّج السّحري لحروفه وضُرف أشكالها كما لو أنّها تدبّ الحياة فيها، ويوجّههم إلى أنّ التّغيير في بنيتها النّحوية والصّرفية والكتابية يؤدّي إلى زعزعتها، ويوضّح أهمّيتها؛ لارتباطها بمصادر التّشريع التي نزلت وكتبت بها، وكلّ ذلك في قالب شعري له من الرّوعة ما يجعل الأطفال يتواصلون معه في المقطع الثالث[39]:

راقب ذي الجملة يا خالدْ انظُرْ ما أجملَ ذَا الحـرفَا

خطًّا يتماوجُ مسحورًا قدْ صبَّهُ رحمانِي ضَـــرْفَا

حـرفًا يتألّــقُ ميســورًا قدْ حُدِّدَ نحـوًا أو صَـرْفَا

أهـــداهُ اللّهُ حمايتَـــهُ عنهُ التّحريــفَ لقدْ كَفَّا

ثمّ يتدرج في تخلّص سلس؛ ليحرّك كلّ مظاهر النّشاط الكامنة في روح الطّفل ليتعلّم الحرف العربي، وينطق به؛ ليصبح مألوفا لديه بتكرار نطقه دون خجل، وبذلك يربّي فيه الشّجاعة الأدبية للتّغنّي باللّغة العربية دون نقص؛ لتكسير أصفاد القائلين بتخلّفها، وبفعله ذاك يثبت للعالَم كلّه أن اللّغة التي سطّرت وحي السّماء؛ هي لغة بينها وبين اللّه عهد، ولا يمكن التّنازل عنها، وستبقى رغم الصّدمات عالية فوق صروف الوهن، كالمعدن الثّمين الذي كلّما غابره الزّمن ازداد لمعانا، يضيف الشّاعر في المقطع الرّابع[40]:

اقرأْ ذِي الجملةَ يا خالدْ اقـرأْ كلماتٍ مألوفـــهْ

وحروفًا أحلى منْ شَهْدٍ ولديْكَ جميعًا معروفـــهْ

اقرأهَا وأعِدْهَا في شَغَفٍ ردّدْهَا مثـــلَ المعزوفـهْ

لا تخشَ نقصًا من لغـةٍ ببيانِ الْيَعرُبِ موصوفَـهْ

وفي المقطع الأخير يخلص الشّاعر بالطّفل إلى أنّ اللّغة العربية هي عنوان الكيان وجمال البيان، بحروفها يُتلى القرآن، وبحبّها تشدو الألحان، وهي جزء من الهوية الوطنية وحبّها من حب الوطن[41]:

اقرأْ ذِي الجملـــةَ يا خالـدْ اقرأْ كلمـــاتٍ عربيـــــهْ

كَلِمَاتٍ فُصْحَى قَدْ حَمَلَتْ آيَـاتِ اَلْوَحْـيِ العُلْوِيَّـــــهْ

اقرأْ ذِي الجملـــةَ يا خالـدْ كَيْ تُدْرِكْ مَعنَى اَلْوَطَنِيَّـــهْ

((لُغَـتِي الْعَرَبِيَّـــــةُ عُنْوَانِي لُغَتِي عُنْوَانُ الشَّخْصِيَّـــهْ))

3- أهداف الشعر التعليمي والتربوي عند جمال الطاهري

لقد حرص جمال الطّاهري على تقديم كل ما سبق في هذا العرض الموجز بصورة متدرّجة تلائم مراحل الطفولة المختلفة، أجل تحقيق الأهداف التّالية:

- تحبيب العلم إلى نفوس الأطفال، وتحويله إلى حركة في العقل والقلب.
- تنمية القدرات العقلية للأطفال، وتأهيلهم للتثقيف واكتشاف الحقائق.
- اكتشاف المواهب العلمية من خلال التّعلم.
- إدراك الأطفال لقيمة الإنسان التي تتجلّى في علمه وتحصيله المعرفي.
- صقل سلوك الاطفال وفق القيم التربوية والأخلاقية.
- تنمية حس الأطفال الفنّي والجمالي بالقراءة والمطالعة.
- تشجيع الأطفال للتكيّف؛ لصنع حضارتهم ومجتمعهم وسعادتهم.
- احترام الأطفال للمعلّمين وإجلالهم.
- تعليم البنات حق، وواجب على المجتمع.
- تعلّم اللغة العربية نطقا وكتابة.

4- الخاتمة والنتائج:

يمكننا في نهاية هذا العرض تقديم بعض المآخذ على مضامين شعر التربية والتعليم عند جمال الطّاهري في الآتي:

- لم يتناول مضمون المدرسة ككيان مادّي؛ لأنّ المدرسة تمثّل للطّفل عالم الانطلاق والانفتاح، وأوّل مغامرة تنطلق به من عالمه الضّيق إلى هذا العالَم الذي ينشئ فيه أولى علاقاته وتطبيعه الاجتماعي، وانسجامه كفرد في الإطار الثّقافي؛ وبذلك يكون شاعرنا قد حجب عواطف واتّجاهات كثيرة كان بمقدوره وهو المربّي الفاضل أن يعبّر عنها على ألسنة الأطفال بحبّهم للمدرسة والمعلّمة والرّفاق، والتّغنّي بالأدوات المدرسية ولا سيّما المحفظة رفيقة الطّفل ذهابا وإيابا والقلم الذي أشار إليه ضمنا كرمز للعلم، فضلا عن ممارسة مختلف الرّياضات في ساحاتها...ولعلّ مهدّم اللّذات قطع الطّريق أمام صاحبي للنّظم في ذلك.
- خلوّ شعره التّعليمي من المناسبات المرتبطة بالعلم والتّعليم، كعيد العلم ومظاهر الاحتفال به، ويوم المعلّم، والدّخول المدرسي، ووداع المدرسة وما يصبغها من نجاحات وتوزيعٍ للجوائز.
- لم يقصد للنّظم حول الكتاب بشكل عام، والكتاب المدرسي بشكل خاص إلاّ ضمن ما أشرت إليه في موضعه، وما يشفع له في هذا الجانب هو تكرار كلمة (اقرأ) في أكثر من موضع؛ لأنّ القراءة متّصلة بالكتاب.
- طول قصيدة (تعليم الفتاة) التي وصل عدد أبياتها إلى ثلاثين بيتا، يثقل كاهل المتلقّي الصّغير، وهو اتّجاه غير إيجابي نحاه الشّاعر في كثير من قصائده.
- ورغم ذلك يبقى جمال الطّاهري كتفا عربيا، وقلما مؤمنا بدوره في إيقاظ الأطفال وتحفيزهم على استعادة دورهم الرّيادي، مراعيا الذّوق السّليم، ومحترما الأمزجة والخصوصيات، محلّقا بخياله دون قطيعة مع الدّين والحضارة، محاربا كلّ

ممجوج، موقظا مشاعر العزّة والكرامة، في أرض العزّة والكرامة. وبذلك يكون قد أسهم في بناء شخصية الطّفل، وأعلى بناء مستقبله وأخرج عالم الطّفولة من مجال التربية المنغلقة في نطاق الأسرة والمدرسة إلى مجالات أرحب؛ لتحقيق نمو فكري أفضل للطّفل، وتنمية إبداعه وتخيّله، ومحاولة إطالة أمد الانتباه عنده؛ حتّى يمدّ ثقافة الطّفل بمختلف أنواع المعرفة بمعلوماتها وحقائقها ذات الاتصال المباشر ببيئته.

الهوامش والإحالات:

[1]– فرّوخ عمر: تاريخ الأدب العربي، ج1، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1981، ص:49.

[2]– بيلو صالح آدم: حول الشعر التّعليمي، مجلّة الجامعة الإسلامية، ج52، المدينة المنوّرة، ص:206. مأخوذة من الموقع: http://shamela.ws/browse.php/book-23069، تاريخ الرفع: 08-07-2015

[3]– عبد المعطي نمر موسى، ومحمد عبد الرحيم الفيصل: أدب الأطفال، ط1، دار الكندي، الأردن، 2000، ص:52.

[4]– عبير النّوايسة: أدب الأطفال في الأردن (الشّكل والمضمون) ط1، دار اليازوري الأردن، 2004، ص:117.

[5]– هو عبد الكريم عُلجي المزداد بتاريخ:14 سبتمبر 1947 بحي عين الذهب بولاية المدية. واختار الاسم الأدبي "جمال الطّاهري" لظروف اجتماعية خاصة.

– أستاذ التّعليم المتوسّط للّغة العربية منذ سنة 1971 بإكمالية رقية مصطفى للبنات بالمدية، ثم انتقل سنة 1978 إلى إكمالية الفضيل اسكندر للبنات بنفس الولاية، حتّى وافته المنية، بعد معاناة طويلة مع مرض العجز الكلوي، حيث التحق بالرّفيق الأعلى – رحمه الله – في يوم الاثنين 08 نوفمبر1999، عن عمر ناهز 52 سنة.

– مؤسس أول رابطة للكُتّاب الشّباب العرب باسم (فينيس) سنة 1971.

– عضو اتّحاد الكتّاب الجزائريين منذ سنة 1972.

– عضو اللّجنة المديرة لاتّحاد الكتّاب الجزائريين منذ سنة 1996.

– صدر اسمه ضمن معجم البابطين للشّعراء العرب المعاصرين الطبعة الأولى 1995.

– له ستة دواوين شعرية للأطفال، منها: الزهور، ونفح الياسمين.

[6]– سورة العلق: الآية:01.

[7]–.جمال الطّاهري: نفح الياسمين، مجموعة أناشيد للأطفال، ط2، مؤسسة أشغال الطباعة، المدية، 1997.، ص:02

[8]–المصدر نفسه، ص:ن

[9]–جمال الطّاهري: الزّهور، ج1، قصائد للفتيان والفتيات، ط1، دار الحضارة، المدية، 1991.، ص:01.

[10]– ماجد عرسان الكيلاني: تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، ط2، دار ابن كثير، دمشق، 1985، ص:66.

[11]– جمال الطّاهري: الزهور1، ص:09.

[12]– سورة آل عمران: الآية:164.

[13]– جمال الطّاهري: الزّهور، ج3، قصائد للفتيان والفتيات، ط1، دار الحضارة، المدية، 1992، ص:02.

[14]–جمال الطّاهري: الزّهور، ج3، ص:02.

[15]– المصدر نفسه، ص:ن.

[16]– جمال الطّاهري: الزّهور، ج4، قصائد للفتيان والفتيات، ط1، دار الحضارة، المدية، 1992.، ص:13.

[17]– باحارث عدنان حسن: أبحاث في تعليم الفتاة المسلمة في ضوء التربية الإسلامية، ط1، دار الصميعي السعودية 2012، ص:12.

[18]–جمال الطاهري: نفح الياسمين، ص:15.

[19]–المصدر نفسه، ص:ن.

[20]– أيمن عامر: الابداع والصّراع، ط1، ايتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004، ص:07.

[21]–.جمال الطّاهري: نفح الياسمين، ص:23

[22]– جمال الطاهري: الزهور، ج3، ص:07.

[23] – جمال الطاهري: الزهور، ج3، ص:07.

[24] – سورة العلق: الآيات:1-2-3-4-5.

[25] – جمال الطّاهري: الزّهور، ج1، ص:03.

[26] – جمال الطّاهري: الزّهور، ج1، ص:03.

[27] – المصدر نفسه، ص:ن.

[28] – جمال الطّاهري: الزّهور، ج1، ص:02.

[29] – إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: أدب الأطفال المنظوم (شعر الأطفال: اتجاهاته ونقده) (د، ط) مركز الاسكندرية للكتاب، مصر، 2009.، ص:166.

[30] – جمال الطّاهري: الزّهور، ج2، قصائد للفتيان والفتيات، ط2، دار الحضارة، المدية، 1991.، ص:08.

[31] –المصدر نفسه، ص:ن.

[32] –نفسه، ص:ن.

[33] –جمال الطّاهري: الزّهور، ج5، قصائد للأطفال، ط1، مؤسسة أشغال الطباعة المدية، 1993.، ص:08.

[34] –جمال الطّاهري: نفح الياسمين، ص:26.

[35] – محمد محمد داود: العربية وعلم اللغة الحديث، ط1، دار غريب، القاهرة، 2001، ص:23.

[36] –حافظ إبراهيم: الدّيوان، ضبط وتصحيح: أحمد امين وآخرون، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987 ص:254-253

[37] –جمال الطّاهري: نفح الياسمين، ص:26.

[38] – صالح بن إبراهيم الحسن: الكتابة العربية من النّقوش إلى الكتاب المخطوط (د، ط) دار الفيصل الثّقافية، الرياض، 2003، ص:10.

[39] –جمال الطّاهري: نفح الياسمين، ص:26.

[40] –جمال الطّاهري: نفح الياسمين، ص:26.

[41] –المصدر نفسه، ص:ن.